الحياة الطيّبة
السنة 27
العدد 54 - 55
صيف-خريف 2023م
ملف العدد

تحدِّيات تأصيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وإشكاليَّاته -الإنسان من منظورٍ قرآنيٍّ أنموذجًا-

أحمد الأصفر الشهير باللحّام[1]

مُستَخلَص:

يستحوذ تأصيل علم الإنسان «الأنثروبولوجيا» من منظورٍ إسلاميٍّ على اهتمام عددٍ من المفكِّرين والباحثين في الوطن العربيّ والعالم الإسلاميّ، ويأتي ذلك من اعتباراتٍ كثيرة تأتي في مقدِّمتها الاعتقاد السائد بين المسلمين بأنَّ القرآن الكريم يحاكي الطبيعة الإنسانيَّة ويحمل في مضامينه كلّ السنن والقوانين الناظمة لحياة الإنسان، في الوقت الذي يتلمّس فيه الباحثون المسلمون أنَّ علم الإنسان الوضعي الذي يجد نفسه معنيًّا بقضايا الإنسان حقَّق تطوُّراتٍ كبيرة في التعرُّف على الجماعات الإنسانيَّة والتغيُّرات التي تمسّها، وعوامل تقاربها وتباعدها، لكنَّه يعالج قضاياه بمعزلٍ عن القضية الأساس المتمثِّلة بمظاهر الظلم والسيطرة وحبّ الاستحواذ التي تسيطر على الإنسان من جهة، مضافًا إلى توظيفاته السياسيَّة التي تأتي لخدمة القوى الاجتماعيَّة والسياسيَّة الحاضنة له من جهة ثانية.

(1) أستاذ في قسم علم الاجتماع، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة دمشق.

وتأخذ الدراسة في معالجة موضوعاتها في محاور ستَّة رئيسة، يتناول الأوَّل مجموعة الجهود العربيَّة والإسلاميَّة المبذولة في سياق عمليَّة التأصيل المعرفيَّة لعلم الإنسان من منظورٍ إسلاميّ، والملاحظات الأساس حول هذه الجهود، وإلى جانب ذلك يتناول المحور الثاني موضوع التعريف بعلم الإنسان من حيث الهويّة والموضوع، ويتطرّق المحور الثالث للخصائص الأساس المحدِّدة للسلوك الإنسانيّ من خلال القراءة الاجتماعيَّة للقرآن الكريم، ويشمل المحور الرابع تحليلًا للقوى الكامنة في شخصَّية الإنسان، والتي ترتبط بنحوٍ من الأنحاء بشخصية إبليس كما يصفها القرآن الكريم، فيما يتناول المحور الخامس مسألة الهداية الإلهيَّة بوصفها معالجةً جذريَّةً للمشكلة المتجذِّرة في شخصيَّة الإنسان.

وتنتهي الدراسة بالمحور السادس الذي يتضمّن الخلاصة والنتيجة التي توصَّلت إليها الدراسة، والتي تبيِّن أهمِّيَّة عمليَّة تأصيل علم الإنسان من منظورٍ قرآنيٍّ بالنسبة إلى علم الإنسان بصورةٍ عامَّة، وما يمكن أن يعالجه من مشكلات لم يتطرَّق إليها علم الإنسان الوضعيّ، وما يمكن أن تؤدِّيه عملية التأصيل من تحريرٍ للفكر الإسلاميّ من القوالب المستقرّ فيه، والتي تحول دون فهم الأبعاد الإنسانيَّة والحضاريَّة للعقيدة الإسلاميَّة.

كلمات مفتاحيَّة:

علم الإنسان، التأصيل المعرفيّ، القرآن الكريم، التحدِّيات، الإشكاليَّات، خصائص الإنسان، القوى الكامنة، الهداية الإلهيَّة.

مقدّمة:

تُشكِّل معرفة الإنسان من منظور القرآن الكريم موضع اهتمام المسلمين في تاريخهم الماضي وحاضرهم ومستقبلهم على حدٍّ سواء، وتأتي في هذا السياق محاولات التأصيل المعرفيّ للعلوم الإنسانيّة من منظورٍ إسلاميّ، بما في ذلك محاولات التأصيل المعرفيّ لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، غير أنَّ هذه المحاولات جاءت بمعانٍ مختلفة ومضامين متنوّعة، وكانت في مجملها ردّة فعلٍ على ما آلت إليه أحوال المسلمين في الوقت الراهن من تخلُّفٍ على مستوياتٍ عديدة، منها على مستوى الهيمنة الغربيّة وسيطرة مجتمعاتها على مقدّرات البلدان الإسلاميّة نفسها، وعلى مستوى تطوّر العلوم الوضعيّة عامّة والإنسانيّة منها خاصّة، وعلى مستوى تردّي أوضاع المسلمين وتخلّفهم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسياسيّ، مضافًا إلى تخلُّفهم في مضمار العلوم، بما فيها العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة على اختلاف ميادينها.

وتأتي مظاهر ردّة الفعل هذه، في الوقت الذي يسود فيه الاعتقاد بين المسلمين، وفي معظم دول العالم، بأنَّ القراءة المتأنِّية للقرآن الكريم تسهم في تمكينهم من فهم حياتهم وظروف عيشهم، وعوامل ضعفهم، وتساعدهم في تجاوز مشكلات التخلُّف التي يعيشونها، مضافًا إلى تقديم معالجةٍ نظريَّةٍ للمشكلات المعرفيَّة الكبيرة المرتبطة بتطوُّر العلوم نفسها؛ ذلك أنَّ القرآن الكريم ينطوي في مضامينه على توصيفٍ حقيقيٍّ للمشكلات المعرفيّة التي يعاني منها الإنسان في ميادين الحياة المختلفة، وفي مجالات العلم المتنوِّعة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنَّ محاولة التأصيل المعرفيّ لعلم الإنسان الإسلاميّ من منظور القرآن الكريم ما هي -من حيث النتيجة- إلّا جهد إنسانيّ يحمل في ثناياه ما يحمله الفعل الإنسانيّ من احتمالات الاقتراب من الحقيقة، ومن احتمالات البعد عنها، ولا تعكس هذه المحاولات حقيقة

المعنى الذي ينطوي عليه النصّ القرآنيّ بالضرورة؛ لأنّ المعاني المستخلَصة من قراءة النصّ إنّما هي نتاج التجربة التي يعيشها الباحث، وهي تختلف بالضرورة عن تجربةٍ أخرى يعيشها باحثٌ آخر، ولهذا تنتفي عن الجهود إمكانيّة وصفها بأنَّها تصف حقيقة الإنسان كما هي في القرآن؛ لأنَّها تعكس في حقيقة الأمر فهم الإنسان للقرآن وليس مضمون القرآن في ذاته، وعلى الرغم من ذلك تعدّ هذه الجهود ضرورةً إيمانيَّةً وشرعيَّةً لما قد تحمله في مضامينها من احتمالات القرب من الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان منذ أن خلقه الله جلّ جلاله في أرضه.

أوَّلًا: التأصيل المعرفيّ للدراسات الإسلاميَّة عامَّة ولدراسات علم الإنسان خاصَّة:

تستحوذ مسألة التأصيل المعرفيّ والعلميّ للدراسات الإسلاميّة ذات الطبيعة الاجتماعيّة على اهتمام العديد من المفكِّرين الإسلاميّين المعنيّين بالشأن الاجتماعيّ؛ لما يفرضه تطوّر العلوم الوضعيّة في العصور الحديثة من تحدِّياتٍ فكريّةٍ تمسّ الفكر الدينيّ، وتمسّ العقائد الدينيّة التي تشكّل البنية الأساسيّة التي ترتكز عليها المجتمعات الإسلاميَّة، فإذا كان من شأن تطوّر العلوم الاجتماعيّة الوضعيّة أن يهدّد الفكر الدينيّ عامّة، فإنَّ النتيجة المترتِّبة على ذلك امتداد مظاهر الخطر لتشمل بنية المجتمعات الإسلاميّة في كلِّيَّتها؛ لارتكازها على العقيدة الإسلاميّة على ما فيها من تنوُّعاتٍ وتناقضات.

وقد انتشرت مجموعةٌ كبيرةٌ من الأعمال التي يصعب حصرها في إطار فكرة التأصيل، والتي أخذت ملامحها بالظهور منذ بدايات القرن العشرين، واتّضحت بشكلٍ كبيرٍ منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، فقد انتشرت في هذا السياق أعمال المفكِّرين الإسلاميِّين الذين أخذوا يعالجون القضايا الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة من منظورٍ إسلاميّ،

ومن ذلك مؤلَّفات السيّد محمّد باقر الصدر (1935 - 1980) العديدة، والتي تأتي منها كتبه: «فلسفتنا»، و«اقتصادنا»، و«التفسير الموضوعيّ والفلسفة الاجتماعيّة»، و«السنن التاريخيّة في القرآن الكريم»، وغيرها، وفي سياق هذه الجهود تأتي أيضًا مؤلَّفات سيّد قطب (1906 - 1966) في مجموعة كتب، مثل: «العدالة الاجتماعيّة في الإسلام»، و«خصائص التصوّر الإسلاميّ»، وأعمال عديدة أخرى، مضافًا إلى مؤلَّفاتٍ كثيرة أيضًا لعبّاس محمود العقّاد (1889 - 1964)، منها: «الإنسان في القرآن»، و«المرأة في القرآن»، و«التفكير فريضة إسلاميّة»، وغيرها.

وفي مرحلةٍ لاحقةٍ أخذت تنتشر مجموعة من الأعمال القريبة من التخصُّصيّة، والتي تشتمل على الجهود التي شاعت تسميتها بما عرف عنها «أسلمة العلوم»، أي البحث في الجذور الإسلاميّة للعلوم التي تتناول قضايا المجتمع والإنسان، والتي تأتي في مقدّمتها العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، كما هو حال ما يسمّى «علم الاقتصاد الإسلاميّ»، و«علم الاجتماع الإسلاميّ»، و«علم النفس الإسلاميّ»، بما في ذلك أيضًا علم الإنسان الإسلاميّ أو «الأنثروبولوجيا الإسلاميّة»[1].

وعلى الرغم من اتِّساع الجهود الرامية إلى طرح القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة من منظورٍ إسلاميّ، فإنّ ملاحظاتٍ معرفيّة ومنهجيّة عديدة مازالت قائمة، منها على سبيل المثال: ما كتبه فكروني زاوي في بحثٍ له بعنوان «مفارقات اتِّجاهات البحث في علم الاجتماع الإسلاميّ»، وفيه يلاحظ أنَّ الباحث يميّز بين ثلاثة مجالات تقع فيها مظاهر الالتباس، هي المفارقات على مستوى التأصيل الأنطولوجيّ لعلم الاجتماع الإسلاميّ،

(1) انتشرت في سياق الجهود المعنيّة بعلم الاجتماع ما كتبه كلٌّ من: صلاح محمّد الفوّال (التصوير القرآنيّ للمجتمع، 1985)، وسامية محمّد الخشاب (علم الاجتماع الإسلاميّ، 1987)، وزينب رضوان (النظريّة الاجتماعيّة في الفكر الإسلاميّ، 1980)، وبسيوني محمّد خولي (علم الاجتماع الإسلاميّ 2020)، وليث عبد الحسين العتابي، (الأنثروبولوجيا الإسلاميّة، 2022)، و مهديّة بن عيسى، (وهم الغرب وجذور الأنثروبولوجيا الإسلاميّة)، وغير ذلك من جهود عديدة.

ومفارقات على مستوى التأصيل المعرفيّ (الأبستمولوجيّ)، وأخيرًا مفارقات على مستوى التأصيل المنهجيّ[1]، وهي ملاحظات تحول في كثيرٍ من الأحيان دون التمكُّن من عمليَّة التأصيل نفسها من جهة، وتحول دون قدرة المسلمين على مجابهة التحدِّيات الفكريّة والمعرفيّة التي يفرضها التطوّر العلميّ من جهة ثانية، مضافًا إلى ما أشار إليه فكروني زاوي، تتَّضح أيضًا مجموعة أخرى من الملاحظات النقديّة التي تأتي في مقدّمتها:

أ. غياب الرؤية المشتركة لعمليّة تأصيل المعارف الإسلاميّة:

يشكّل التعدّد في التصوّرات المطروحة لمفهوم التأصيل واحدًا من العوامل التي تحول دون الوصول إلى تحقّقه في الواقع، ففي هذا الإطار يجد إسماعيل الفاروقي أنّ «إسلاميّة المعرفة» أو «أسلمة المعرفة» تعني إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها، أي إعادة تحديد الأولويّات وترتيبها، والنظر من جديد في الاستنتاجات المستخلصة من هذه المعارف، وإعادة تقويم النتائج، وإعادة تصوّر الأهداف بطريقة تمكّن من إغناء قضيّة الإسلام وخدمتها[2]، ويمضي في ذات التوجّه عماد الدين خليل، ويأخذ بتعريف عمليّة التأصيل بأنّها ممارسة النشاط المعرفيّ كشفًا وتجميعًا وتركيبًا وتوصيلًا ونشرًا من زاوية التصوّر الإسلاميّ للكون والحياة والإنسان[3].

كما يجد أكبر أحمد أنّ عمليّات التأصيل مرتبطة بالموضوعات التي يعالجها العلم، وشمولها لقضايا المجتمع الإسلاميّ ومشكلاته[4]، وإلى جانب ذلك يأخذ عامر الوائليّ بتعريف علم الإنسان الإسلاميّ (الأنثروبولوجيا

(1) انظر: زاوي، فكروني:»مفارقات اتجاهات البحث في علم الاجتماع الإسلاميّ محاولة لتبيان نقاط الالتباس المنهجيّ الأبستمولوجيّ»، مجلّة آفاق فكريّة، العدد الرابع، شتاء 2016، ص91.

(2) فرفار، جمال وجيلالي حلوز: «علم الاجتماع الإسلامي وتحديات الحداثة»، مجلّة العلوم الإسلاميَّة المعاصرة، المجلّد السابع، العدد الأول، 2022م، ص476.

(3) م.ن.

(4) أكبر، أحمد: نحو علم الإنسان الإسلاميّ تعريف ونظريّات واتجاهات، ترجمه عن الإنكليزيّة: عبد الغني خلف، لا ط، فيرجينا، المعهد العالي للفكر الإسلاميّ، دار البشير للنشر والتوزيع، 1990م، ص114.

الإسلاميّة) بمعنى الأنثروبولوجيا التي تتناول المجتمع الإسلاميّ بالدراسة والتحليل[1]، كما يذهب كلٌّ من ليث عبد الحسين العتابي[2]، و مهدية بن عيسى إلى أنّ الأنثروبولوجيا ذات طبيعة إسلاميّة في طبيعتها[3].

ويدلّ ذلك على التنوّع في التصوّر العامّ لعمليّة التأصيل، ومن الصعوبة أن تتحقّق هذه العمليّة بدون رؤية مشتركة وتصوّرات متقاربة.

ب. تداخل موضوعات العلم والمنهجيّة المتّبعة فيه:

إنّ تطبيق منهج دراسات علم الإنسان في دراسة قضايا المجتمع العربيّ، لا يعدّ بالضرورة شكلًا من أشكال علم الإنسان الإسلاميّ أو «الأنثروبولوجيا الإسلاميّة» كما يذهب إلى ذلك عامر الوائلي[4]، فإذا استخدم الباحثون تعبير «الأنثروبولوجيا البنيويّة»[5]، فإنّهم يستخدمونه للدلالة على تفسير موضوعات البحث من خلال مفهوم البنية، وبالتالي فمن الضروريّ استخدام تعبير «الأنثروبولوجيا الإسلاميّة» للدلالة على جهود المشتغلين المبنيّة على رؤيةٍ إسلاميّةٍ مستنبطةٍ من التصوّرات الإسلاميّة والمبادئ الإسلاميّة نفسها، على أن تكون هذه التصوّرات تجريبيّةً وقابلةً للتطوير، وليست ذات طبيعة إيمانيّة مرتبطة بالفهم الذاتيّ للباحثين، ولا مسألة أخلاقيّة مرتبطة بأحكام الوجوب.

(1) انظر: الوائلي، عامر عبد زيد: «الأنثروبولوجيا الإسلاميّة مقاربة في الاستشراق الجديد إرنست غلينر نموذجًا»، مجلّة دراسات استشراقيّة، العدد 13، 2018م، ص75.

(2) انظر: العتابي، ليث عبد الحسين: الأنثروبولوجيا الإسلاميّة، لا ت، موقع أرنتروبوس: Https://www.aranthropos.com/الأنثروبولوجيا_الإسلاميّة

(3) انظر: بن عيسى، مهدية: «وهم الغرب وجذور الأنثروبولوجيا الإسلاميّة»، مجلّة أنثروبولوجيا الأديان، المجلد 11، العدد 1، ص71.

https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/55978960/1/11/

(4) انظر: الوائلي، الأنثروبولوجيا الإسلاميّة مقاربة في الاستشراق الجديد، م. س.

(5) يُعدّ ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) (1908 - 2009) واحدًا من أشهر الباحثين في علم الإنسان، الذين اعتمدوا مفهوم البنية في تحليل موضوعاتهم، وله في هذا الصدد كتابه المشهور «الأنثروبولوجيا البنيويّة» انظر: ستروس، كلود ليفي: الأنثروبولوجيا البنيويَّة، ترجمة: مصطفى صالح، لا ط، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، 1977م.

ج. النموذجيّة والمثال في فهم النصّ:

يرى ليث العتابي أنّ على المشتغلين بعلم الإنسان الإسلاميّ أن يقدّموا هذا العلم من خلال النظرة الإلهيّة للإنسان والمتجسّدة في كتاب الله تعالى (القرآن الكريم)، وعليهم أن يقدّموا هذا العلم بنظرةٍ ومنهجيّةٍ قرآنيّة، والتي قوامها تكريم الإنسان، ورفع مكانته، فهو خليفة الله في أرضه، وحامل الأمانة الإلهيّة، وسيّد جميع المخلوقات، والمتسلّط على جميع الموجودات[1]، ويمضي في هذا التوجّه كلّ من عزّت جرادات[2]، وعون الشريف قاسم[3]، وعماد الدين خليل وغيرهم[4].

غير أنّ هذا التصوّر، وعلى الرغم ممّا يتّصف به من أهمّيّةٍ معرفيّةٍ وعلميّة، إلّا أنّه لا يميّز بدقّة بين مضمون النصّ القرآنيّ عندما يتناول ظاهرةً كونيّة، أو إنسانيّة، وبين الفهم الإنسانيّ له، فإذا كان النصّ القرآنيّ يحمل في مضامينه الحقائق التي تشغل بال الإنسان منذ القديم، فإنّ المشتغلين في التفسير يسقطون فهمهم الإنسانيّ على هذه المضامين، ويجعلون من فهمهم النسبيّ امتدادًا للنصّ في معانيه المطلقة.

ولا بدّ من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ غياب القدرة على التمييز بين مضمون النصّ القرآنيّ في ذاته، وبين التفسير الإنسانيّ له لا ينطوي بالضرورة على التباعد بينهما في كل الحالات؛ لأنَّ من شأن «حتميَّة التباعد» أن تعطِّل كلَّ الجهود الإنسانيّة الرامية إلى معرفة الحقائق التي يتضمَّنها القرآن الكريم، وإذا لم يكن في مقدور الإنسان الوصول إلى المعارف التي أرادها الله جلّ جلاله بالضرورة، فلا مسوّغ إذًا للدراسات القرآنيّة والبحوث الفقهيّة؛ ولهذا السبب فإنّ لهذه الدراسات والبحوث ضرورةً حياتيّة وشرعيّة وفقهيّة في حياة الناس، لكن الضرورة المعرفيّة توجب

(1) انظر: العتابي، الأنثروبولوجيا الإسلاميّة، م.س.
(2) انظر: جرادات، عزت: «نظرة فاحصة في التغيّر الاجتماعي الإسلاميّ»، مجلّة المسلم المعاصر، يناير (كانون الثاني) 1977، ص3.
(3) انظر: عون، قاسم: «القرآن الكريم والحضارة»، مجلَّة المسلم المعاصر، مارس (آذار) 1978، ص5.
(4) انظر: خليل، عماد الدين: القرآن الكريم والمسألة الاجتماعيَّة، مجلَّة المسلم المعاصر، العدد العاشر، يونيو (حزيران) 1977، ص1.

الانتباه إلى مسألتين رئيستين هما: وعي التمايز بين النصّ القرآنيّ والفهم الإنسانيّ له أوَّلًا، ونفي قدسيّة الفهم الإنسانيّ للنصّ القرآنيّ ثانيًا، ومن شأن ذلك فقط أن يجعل من الدراسات القرآنيّة علومًا قابلة للتطوّر، ويتيح إمكانيّة الخروج من القوالب الجامدة التي تحول دون تطوّرها من جهة، وتعيد إنتاج ذات المشكلات التي تعيشها المجتمعات الإسلاميّة منذ فترات زمنيّة طويلة من جهة ثانية.

د. مناقشة ختاميّة للجهود المبذولة في عمليّات التأصيل المعرفيّ للعلوم الإسلاميّة:

تأتي مواطن الضعف في انتقادات المشتغلين في علم الإنسان الإسلاميّ لعلم الإنسان الوضعيّ من التباين الملحوظ في موقع كلٍّ منهما بالنسبة إلى مجتمعه.

ففي الدول الغربيّة (المتقدّمة علميًّا، وتقنيًّا)، تمكّنت فيه العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، بما فيها علم الإنسان، من أن ترسّخ ثقافتها في مجتمعاتها، وتصبح عاملًا رئيسًا من عوامل صنع القرار على المستويات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة فيها، وأصبحت واحدة من محدّدات الفعل السياسيّ على مستوى الدولة هناك، مضافًا إلى أنَّها باتت أيضًا جزءًا لا يتجزّأ من العلوم العسكريّة التي تستخدمها تلك الدول في حروبها مع الدول الأخرى لأغراض الهيمنة والسيطرة وتوسيع مظاهر النفوذ، وأصبحت العلوم الاجتماعيّة عامّة، وعلم الإنسان خاصّة تؤدّي دورًا رئيسًا في ما يسمّى اليوم بحروب الجيل الرابع التي تقوم في أساسها على إثارة الفتن الداخليّة والنعرات الطائفيّة لتفتيت الدول والمجتمعات المستهدفة في الحرب وتسهيل السيطرة عليها من الخارج، وباتت لهذه الحروب نظريّات ومدارس واتّجاهات تتناول مواضيعها من رؤى مختلفة[1].

(1) انظر في هذا الصدد: علي، محمود محمّد: حروب الجيل الرابع وجدل الأنا والآخر، لا ط، الإسكندريَّة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2019م.

أمّا في العالم الإسلاميّ، بما في ذلك المجتمع العربيّ، فما زالت العلوم الاجتماعيّة عامّة، بما فيها علم الإنسان، تبحث عن هويّتها على المستوى المعرفيّ، وطرق عملها وأدواتها على المستوى المنهجيّ، مضافًا إلى أنّ المشتغلين فيها ما زالوا يبحثون فيها عن فرص عملٍ لهم تناسب مؤهّلاتهم والمهارات التي اكتسبوها خلال تجاربهم البحثيّة والدراسيّة.

ويُلاحظ أنّ هذه العلوم لا تستحوذ على اهتمام المعنيّين باتخاذ القرار، وليس لها أيّ مكانة في صنع القرار، وينطوي الاهتمام الرسميّ بها، في حال ظهوره، على الرغبة في التجمّل بتقليد الجامعات الغربيّة والتشبّه بها، والتفاخر بالمنجزات الشكليّة التي حقّقتها هذه الجامعة أو تلك، أو حقّقتها هذه المؤسّسة العلميّة أو غيرها، دون القناعة الحقيقيّة بوظيفتها الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة في بناء المجتمعات الإسلاميّة.

ثانيًا: الخصائص الأساس للإنسان كما يصفها القرآن الكريم:

تشكِّل الخصائص الأساس للإنسان، التي تميّزه عن الكائنات الحيّة الأخرى، كما يصفها القرآن الكريم، المدخل الأساس لدراسة علم الإنسان من منظور القرآن الكريم؛ ذلك أنّ هذه الخصائص هي التي تحدِّد أشكال سلوكه وأنماط الفعل التي يمارسها في حياته في علاقاته مع نفسه ومع أقرانه من النوع الإنسانيّ، وفي علاقاته مع الكون الذي يعيش فيه، وصولًا إلى علاقاته مع الله جلّ جلاله.

والإنسان في القرآن الكريم نتاج تفاعل الطبيعة المادِّيَّة التي تجسَّدت في امتزاج الماء والتراب والهواء والنار في تشكيلةٍ خاصَّةٍ مع النفخة الإلهيّة التي جعلت منه إنسانًا، جاء في سورة الحجر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾؛ ولهذا من الطبيعيّ أن يحمل الإنسان في شخصيّته ملامح ارتباطه بالنفخة الإلهيّة التي تتجسَّد في سلوكه

القائم على الخير والعطاء وحبّ الآخرين، وضمان مصالحهم، إلى جانب ما يحمله من سماتٍ مستمدّة من طبيعته المادّيّة التي تظهر في سلوكه أيضًا القائم على الأنانيّة والتعالي، والعدوانيّة وحبّ السيطرة والاستئثار، وغيرها من السمات المستمدّة من جذوره الطينيّة التي يشترك فيها مع الكائنات الحيوانيّة الأخرى.

ويأتي توصيف طبيعة الإنسان في القرآن الكريم في سياق تناوله لحكاية الإنسان نفسه من حيث وجوده في الأرض، والتي تلخّصها الآية الكريمة الواردة في سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وورد التوصيف ذاته بصيغ شبيهة أيضًا في سورة الأعراف الآية (24-25)، وسورة طه الآية (123 - 124).

ومن خلال قراءة الآيات القرآنيّة ذات الصلة بالهبطة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، يمكن استخلاص جملة من الصفات الأساسيّة عند الإنسان، ويتميّز باجتماعها لديه إذا ما تمّت مقارنته مع الكائنات الحيّة الأخرى، وتتمثّل هذه السمات بالتعقّل والعقلانيّة، والقدرة على التفكير التي تجعله موضع المسؤوليّة في كونه خليفة الله في أرضه، بالإضافة إلى سمات الأنانيّة والعدوانيّة والتعالي والتمتّع التي تدفعه إلى مخالفة الأمر الإلهيّ، كما تضاف إلى هذه الخصائص سمة خلود النفس واستمراريّة الحياة بعد الموت والتي تؤدّي وظيفة حيويّة في عمليّة الضبط الذاتيّ للسلوك، وهذه سمات طبيعيّة في الإنسان، يمكن تلمّسها في كلّ أنواعه وأجناسه، وتترتّب عليها تداعيات متنوّعة تختلف مع اختلاف السياقات الزمانيّة والمكانيّة لها.

أ. القدرات العقليّة:

تعدّ صفة التعقّل والعقلانيّة من الخصائص النوعيّة الأساسيّة للإنسان، كما يصفه الله جلّ جلاله في القرآن الكريم، وقد جاءت الكلمات المشتقّة من مفهوم العقل على أوجه مختلفة، منها ما ينطوي على دلالات إيجابيّة، ومنها ما يحمل دلالاتٍ سلبيّة، أمّا كلمة «العقل» بحدّ ذاتها فلم تأتِ مستقلّةً عن الصيغ التي جاءت في تراكيب مختلفة بحسب استخداماتها في الجمل الواردة فيها، فقد وردت كلمة «تعقلون» في أربع وعشرين مرّة، بينما جاءت كلمة «يعقلون» في اثنتين وعشرين مرّة، وجاء استخدام الكلمة دالًّا على صحّة التفكير وسلامة المنطق الذي يتّصف به الإنسان، وفي الحالات السلبيّة يحمل معنى الاستغراب لعدم اكتمال السمة عن الإنسان، كما هو الحال في سورة البقرة، وفي سياق الخطاب الموجّه لبني إسرائيل، يقول الله عزّ وجلّ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]؛ ذلك أنّ سلامة القدرة العقليّة توجب تطابق تقويم الذات وتقويم الآخرين، كما ورد توصيف الإنسان بالتعقّل والعقلانيّة بأشكال مختلفة في سورة البقرة (الآية 73)، وسورة الأنعام (الآية 32)، وفي سورة يوسف (الآية 2)، وفي سورة الشعراء (الآية 28)، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تدلّ على اتّصاف الإنسان بخاصّيّة العقل والتعقّل، وتشكّل عاملًا رئيسًا من العوامل المحدّدة لسلوكه وأنماط الفعل التي يمارسها.

ب. خاصّيّة التفكير:

تأتي خاصّيّة التفكير في الموقع الثاني من الأهمّيّة، وغالبًا ما يستخدم الباحثون في العلوم المختلفة تعبير «التفكير» للدلالة على النشاط الذهنيّ الذي يمارسه العقل الإنسانيّ، ويوازن من خلاله بين الأشياء والقضايا التي تستحوذ على اهتمامه تبعًا لمعايير عقليّة ونفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة مختلفة، وغالبًا ما ينتهي إلى قرارٍ يشكّل خلاصة ما توصّل إليه من موازنات ومقارنات وتحليلات.

(1) سورة البقرة، الآية 44.

وقد وردت الكلمات المشتقّة من الفكر مرّات عديدة، منها ما ورد في سورة البقرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وفي سورة آل عمران (الآية 191) وفي سورة الأعراف (الآية 176)، كما وردت الكلمة في مواقع عديدة أخرى منها ما ورد في سورة النحل (الآية 11)، وفي سورة الروم (الآية 8).

إنّ التفكير سمة أساسيّة من سمات الإنسان، حتّى أنّ الفيلسوف الفرنسيّ ديكارت ربط بين وجود الإنسان وتفكيره، وعبارته الشهيرة (أنا أفكر إذن أنا موجود)[2] وهو قدرة من القدرات التي يستطيع الإنسان من خلالها التعرّف على الأشياء واستنباط الدروس من التجارب المختلفة التي يمرّ بها، فإذا كان العقل والتعقّل سمة دالّة على قدرة الربط بين الأشياء في وعي الإنسان، فالتفكير يتمثّل في قدرة الإنسان على تداول الأشياء ومقارنتها مع بعضها، ويتضمّن أيضًا القدرة على الاحتفاظ بصور الأشياء في دائرة الوعي، مما يجعل المقارنة بينها ممكنة بدرجة كبيرة، ويدلّ مضمون العبارات الواردة في القرآن الكريم الدالّة على التفكير على أنّ هذه القدرة إنّما تأتي متدرّجة في مستوياتها، مما يتيح إمكانيّة التمييز بين من يفكّرون، ويتفكّرون، وغالبًا ما يأخذ التفكير أيضًا طرقًا متباينة تؤدّي إلى نتائج مختلفة، فيتميّز بعض الأفراد بالطريقة التركيبيّة أو الشموليّة في التفكير، بينما يتّصف غيرهم بالطرق التحليليّة والتجزيئيّة، وغالبًا ما تأتي نتائج طرق التفكير مختلفة أيضًا.

ج. العدوانيّة:

تعدّ سمة العدوانيّة واحدةً من الخصائص المتأصِّلة في شخصيَّة الإنسان منذ أن كتب الله عليه الهبوط والعيش في الأرض، مع إمكانيّة القول إنّ

(1) سورة البقرة، الآية 219.

(2) يربط ديكارت بين الشكّ والتفكير والوجود، وكانت عبارته الدقيقة «إذا كنت أشكّ فمعنى ذلك أنّني أفكر، وإذا كنت أفكّر فمعنى ذلك أنّني موجود» انظر: فضل الله، مهدي: فلسفة ديكارت ومنهجه، لا ط، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1996م، ص92.

الهبوط المشار إليه ينطوي على بُعْدٍ رمزيٍّ ومعنويٍّ أيضًا، مضافًا إلى بُعدِه المادّيّ، وقد ورد توصيفها في القرآن الكريم، بأشكال مختلفة، منها ما ورد في سورة البقرة ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ومنها ما ورد في سورة الأعراف (الآية 24)، وسورة طه (الآية 123)، وتشير هذه الآيات إلى أنّ العدوانيّة سمة ترافق الإنسان منذ أن خلقه الله جلّ جلاله في أرضه، وهي مبنيّةٌ على مبدأ استخدام القوّة مع الآخرين للوصول إلى الأهداف التي يسعى إليها الفاعل، أمّا شرعيّة استخدامها فهي مسألة أخلاقيّة اجتماعيّة تختلف من ثقافةٍ إلى أخرى ومن مجتمعٍ إلى آخر.

كما أنّ العدوانيّة متأصّلة في شخصية الإنسان، وليست وراثيّة ولا هي مكتسبة، وتأتي من تفاضل مصادر القوّة بين الأفراد، وخاصّة بين من يتفاعلون مع بعضهم، وقد تكون قوّة عضليّة جسديّة تدفع المتفاعلين إلى أنماطٍ محدّدة من التفاعل، وقد تكون قوّة عقليّة وفكريّة، كما هو حال الأكثر ذكاءً في سيطرتهم على الأقل ذكاءً، وقد يأتي التفاضل في مصادر القوّة من الجانب الاقتصاديّ أو السياسيّ، أو الاجتماعيّ، ومع كلّ شكلٍ من أشكال تفاضل القوّة، تظهر العدوانيّة في السلوك الذي يمارسه الإنسان على نمطٍ مختلف عمّا هو عليه بالنسبة لسابقه، وقد يسبغ الإنسان عليها طابعًا شرعيًّا، تبعًا للثقافة التي ينتمي إليها، وقد لا تكون هذه الشرعيّة موضع اهتمامٍ بالنسبة إليه في أحيان كثيرة، تبعًا لمستوى تجذّر هذه السمة في شخصيّته.

وفي الوقت الذي تأتي فيه ممارسة العدوانيّة لتحقيق المنافع، وما يترتّب عليها من شعور باللذّة بالنسبة إلى الفاعلين، فإنّها تشكّل مصدر معاناةٍ وعذابٍ بالنسبة إلى الذين تقع عليهم العدوانيّة؛ بسبب قيامها بالأساس على القوّة وشدّة البأس، وعلى الرغم من أنّ ما يصيب بعض الناس من عذابٍ لبعضهم على يد بعضهم الآخر إنّما هو قدر من الله جلّ جلاله، لكنّه يأتي ممَّا بينهم من تفاضلٍ في القوّة وحبّ السيطرة والاستحواذ، الأمر

الذي يتجلّى واضحًا في قساوة قلوب بعضٍ على بعضهم الآخر، يقول الله جلَّ جلاله في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، كما ورد ما يرتبط بصفة العدوانيّة واستخدام القوّة عند الإنسان في سورة الإسراء (الآية 5)، وفي سورة المائدة في الآيات (14) و(64)، و(91)، وتمتدّ تداعيات استخدام القوّة والعدوانيّة بين الناس إلى إمكانيّة أن يصبح الأبناء أنفسهم مصدر وبال على آبائهم، وقد يصبح الآباء أنفسهم مصدر وبالٍ على أبنائهم، جاء في سورة الأنفال قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وكذلك الحال في سورة المنافقين (الآية 9)، وفي سورة التغابن (الآية 15).

د. المتعة والتمتّع:

يشكّل الشعور بالمتعة مكوّنًا أساسيًّا من مكوّنات شخصيّة الإنسان، فقد جاء في سورة البقرة، وكما مرّ بيانه قوله جلّ جلاله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2]، وفي سورة آل عمران يقول المولى جلّ جلاله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[3]، وفي سورة الأعراف قوله جلّ جلاله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[4].

وإذا ما تمّ النظر إلى شجرة الخلد على أنّها رمزٌ لكلّ رغبةٍ في شخصيّة الإنسان، فإنّه من الممكن تلمّس مظاهرها في كلّ جوانب الحياة التي

(1) سورة الأنفال، الآية 28.
(2) سورة البقرة، الآيات 36-38.
(3) سورة آل عمران، الآية 14.
(4) سورة الأعراف، الآية 24.

يمارسها في حياته، فشجرة الخلد، هي «التفاحة» التي جذبت اهتمام آدم وزوجته في الجنّة، وكانت مصدر الإغراء الذي مكّن الشيطان من وسوستهما كما جاء في سورة الأعراف ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾[1].

أمّا في الحياة التي يعيشها الإنسان على الأرض، فتكمن المتعة في الرغبات والشهوات التي تدفع بالإنسان إلى البحث عنها وطلب تحقيقها، اعتقادًا منه بأنّها مصدر متعته وسعادته، وما أن يتحقّق وصوله إليها، حتّى تزول عنها جاذبيّتها، وتظهر رغبات جديدة وشهوات مختلفة يمكن أن تكون أكبر حجمًا، وأرفع مكانة، ويظهر ذلك في حياة الإنسان بمراحله المختلفة، فإذا ما كان طفلًا جذبه ما لدى أقرانه من ألعاب التسلية وقطع الحلوى، وفي مرحلة شبابه تجذبه الفتاة الجميلة، والمكانة الاجتماعيّة، وشهوة الاعتزاز بالسيطرة، ومع تقدّمه في العمر تظهر مصادر الجذب بطرقٍ أخرى وأشكالٍ مختلفة، تدور في مجملها على السعي للحصول على ما في حوزة الآخرين من مصادر المتعة والثروة والسيطرة، اعتقادًا منه بأنّها تُشكِّل مصدر سعادته واستقراره وتفوّقه على أقرانه في حينه.

ويترتّب على تصوّر شجرة الخلد على أنّها رمز للشهوات والرغبات المضمرة في شخصيّة الإنسان أن تصبح هذه الشجرة حاضرة في حياة الإنسان، وتشمل كلّ مصادر الإغراء في حياته وعلى اختلاف مراحل عمره، فهي ليست مكوّنًا من مكوّنات قصّة تاريخيّة عابرة وردت في القرآن الكريم فحسب، إنّما هي مكوّن أساس من مكوّنات حياته التي يعيشها، ويمكن تلمّسها في كلّ ما يحمل في مضمونه مظاهر الجشع وحبّ السيطرة والاعتزاز بالقوّة.

(1) سورة الأعراف، الآية 20.

والشعور بالمتعة هو شعور إنسانيّ، فقد تتمكّن مجموعات من النحل من إنتاج أشكال هندسيّة شديدة التعقيد دون أن يرافق هذه المجموعات شعور بالمتعة أو بالتباهي والتفاخر والتعالي على بعضها؛ لأنّ إنتاجها إنّما هو إنتاج غريزيّ، غير مدرك في أبعاده بالنسبة إليها، وسرعان ما تتخلّى هذه المجموعات عمّا أنتجته لمجرّد أنّها شعرت بخطر يهدّدها، فلا توجد في حقيقة الأمر أيّ علاقة وجدانيّة بين مجموعات النحل وما تنتجه من مواد يستفيد منها الإنسان فيما بعد.

٥. خلود النفس ومرحليَّة الحياة:

تستحوذ مسألة خلود النفس على اهتمام الفلاسفة والمفكّرين منذ القديم وحتّى العصور الحديثة، ففي الوقت الذي ينفي فيها ديفيد هيوم أيَّ جوهريّة مستقلّة للنفس عن الجسد؛ لأنّ الحواس هي مصدر المعرفة، يذهب رينيه ديكارت إلى القول إنّ النفس البشريّة جوهر مستقلّ عن الجسد، ويمكن أن تكون منفصلة عنه، وأن الجسم جوهر ممتدّ، لا يمكن اعتباره كيانًا مفكّرًا، والتفكير خاصّيّة أساسيّة من خواصّ النفس[1]. وبين هذا التوجّه وذاك يجتهد فلاسفة العصر الحديث في تقديم أجوبتهم عن الأسئلة التي تطرحها هذه المشكلة، والتي يأتي فيها الجواب القرآنيّ باستقلاليّة النفس وخلودها بين الموت لتنبعث من جديد يوم الحساب.

ويصف القرآن الكريم حياة الإنسان في الأرض بأنّها مرحليّة، وغير مستقرّة، الأمر الذي يفيد بمبدأ خلود النفس، أو خلود الروح، وأنّ الاستقرار النهائيّ للإنسان في الحياة الآخرة، إنّما هو استقرار في الجنّة، أو النار، أمّا الاستقرار الدنيويّ، فهو استقرار مؤقّت يحمل في مضامينه أشكالًا مختلفة من التغيّر والتبدّل، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: [إلى حين]، كما هو الحال

(1) انظر: بن عيسى، خيرة: النفس بين الخطابين الفلسفيّ والصوفيّ، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، جامعة وهران 2، 2015م، ص46.

في سورة البقرة ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]، أو كما هو الحال في سورة الأعراف ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2].

وقد وردت كلمة المستقرّ في القرآن الكريم في مواقع عديدة، تفيد التموضع الثابت للشيء في موقعٍ محدّد، إلى جانب تعبير «المستودع» التي تفيد بالتموضع المؤقّت وغير الثابت، جاء في سورة هود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3]، فكلّ كائن حيٍّ يستقرّ في موقعٍ ثابتٍ يلجأ إليه، وموقعٍ يستودعه لحينٍ من الزمن، وينطبق الأمر على الإنسان، الذي يجد نفسه دائمًا في مكانٍ يستقرّ فيه ويعود إليه بعد كلّ حين، ومكان يذهب إليه لقضاء حاجاته وممارسة أعماله، فهو يستودعه إلى حينٍ من الزمن، ثمّ يتخلّى عنه المرء ليجد نفسه في موقع الاستقرار الذي يلجأ إليه.

والاستقرار من حيث النتيجة، هو الاستقرار في الحياة الآخرة، ويمكن أن يكون مستقرّه الأخير في الجنّة، ويمكن أن يكون مأواه الأخير في نار جهنم، يقول الله عزّ وجلّ في سورة الفرقان ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا﴾[4]، وفي سورة الفرقان أيضًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[5]، وفي حديثه عن نار جهنم بوصفها مأوًى نهائيًّا للكثير من الخلق، كما هو وارد في سورة النساء (الآية 97)، وفي سورة النساء (الآية 115)، وفي سورة الفرقان (الآية 66).

(1) سورة البقرة، الآية 38.
(2) سورة الأعراف، الآية 24.
(3) سورة هود، الآية 6.
(4) سورة الفرقان، الآية 24.
(5) سورة الفرقان، الآية 76.

وعلى الرغم من أنّ مسألة خلود النفس هي مسألة إيمانيّة، ولا يمكن التحقّق منها في التجارب العلميّة التي يأخذ بها العلم الوضعيّ، لكنَّ دورها في ضبط السلوك الاجتماعيّ يأتي جليًّا وواضحًا في كلّ مفاصل الحياة التي يعيشها الإنسان؛ لأنّ الايمان بها يجعل من الحياة الآخرة بمثابة المستقبل الذي يسيطر على مشاعره وأحاسيسه وعواطفه ووجدانه، ويدفعه إلى التكيّف معه تبعًا لتصوّراته له.

وتأتي عقيدة خلود النفس، والحياة بعد الموت لتشكّل المستقبل الأخير الذي يتطلّع إليه من يؤمن بها، فتصبح كلّ مظاهر المستقبل في حياته الراهنة ضعيفة الشأن إذا ما تمّت مقارنتها مع مستقبله في حياته الآخرة، فيصبح التكيّف مع هذا المستقبل همّه الأوّل وشغله الشاغل، ويأخذ الموقع الأهمّ بالنسبة إليه، ويحظى بالأولويّة في حياته الراهنة، ومن يؤمن بالحياة الآخرة وتستقرّ في وجدانه وعواطفه ومشاعره وأحاسيسه يتمثّل في وعيه قول الله جلّ جلاله في سورة القصص: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، وبذلك تصبح الحياة الآخرة بالنسبة إليه الأساس في اختياره لأنماط سلوكه، والميزان الذي يعتمد عليه في تقويم أشكال الفعل التي يمارسها، بينما تصبح الحياة الدنيا، وكلّ المنجزات التي يتطلّع إليها هي مجرّد وسائل لضمان حياته واستمراريّة عيشه لا أكثر.

ثالثًا: القوى الكامنة في شخصيّة الإنسان ورمزيّة إبليس:

تعكس قصّة آدم عليه السلام في القرآن الكريم قصّة الإنسان نفسه، دون الجزم بأنّ الإنسان هو نفسه آدم بالضرورة؛ لأنّ الخطاب المتعلّق بآدم عليه السلام جاء منفصلًا تمامًا عن الخطاب المتعلّق بالإنسان، فقد أفرد الله عزّ وجلّ لكلٍّ منهما خطابًا خاصًّا به، مما ينفي إمكانيّة الجزم بأنّ الإنسان في نوعه هو

(1) سورة القصص، الآية 77.

آدم نفسه الذي تحدّثت عنه الآيات القرآنيّة، وما تتداوله الثقافات السائدة عن الصلة بين آدم عليه السلام والإنسان، إنّما هي الصلة بين الأب وأبنائه؛ ولهذا يقال عن الإنسان إنّه ابن آدم، وبني آدم، التي وردت في القرآن الكريم في موارد عديدة، ويُراد بها الإنسان أينما كان وحيثما وجد، وهو يحمل صفات آدم نفسها، من حيث كونه خليفة الله في أرضه، ومن حيث خصائصه التي كانت وراء خروجه من الجنّة، وهي الخصائص التي استقرّت في شخصيّته، وباتت مكوّنًا أساسيًّا من مكوّناتها، وتؤثّر في مسارات سلوكه وأشكال فعله، مع ما يترتّب عليها من مشكلاته.

أ. عقدة الاصطفاء والتفوّق:

يقول المولى جلّ جلاله في سورة الأعراف، وفي حديثه عن إبليس عندما رفض السجود ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]، وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أنّ رفض إبليس للسجود إنّما جاء من اعتقاده بأفضليّته على آدم من حيث طبيعته التي ميّزته عن آدم في خلقه، فقد خلقه الله عزّ وجلّ من النار، بينما خلق الله آدم من تراب، والنار في تصوّره أجلّ من التراب وأكثر قوّة، ولكنّ المسألة التي غابت عن وعي إبليس أنّ النار والتراب من خلق الله، وليس لأيٍّ منهما ذاتيّة مستقلّة تكسبها الأفضليّة.

وبتحليل مظاهر الشعور بالأفضليّة والتعالي على الآخرين، يمكن تلمّس أنّ هذه هي نفسها مشكلة الإنسان في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهي التي تحدّد مشكلات تفاعل أبنائه مع بعضهم، فكلّ العقائد والأفكار التي جاءت على أساس عقيدة الاصطفاء، من عقائد قبليّة وعشائريّة وإثنيّة وعرقيّة وقوميّة ودينيّة وطائفيّة وكلّ أشكال الاصطفاء كانت وما زالت مصدرًا للشرور والحروب بين أبناء البشر أنفسهم، وكلّها مبنيّة على تفضيل الذات والاعتقاد بدونيّة الآخرين.

(1) سورة الأعراف، الآية 12.

وتأتي عقدة الاصطفاء لدى الإنسان من فهمه المغلوط لما أودع الله فيه من القدرات العقليّة والفكريّة التي تأتي متدرّجة بين البشر، فيوسوس الشيطان لبعضهم أنّ القدرات العقليّة والفكريّة التي تميّزهم عن غيرهم إنّما هي ذاتيّة في شخصيّاتهم، مما يجعلهم يشعرون بالتفوّق والتعالي، كما هو حال إبليس تمامًا عندما اعتقد بأنّه أفضل من آدم عليه السلام؛ لأنّه مخلوق من النار، وأنّ هذه الأفضليّة التي تخيّلها، والقدرات التي ظنّ بأنّه يتمتّع بها، إنّما هي ذاتيّة في شخصه، وليست مستمدّة من الله جلّ جلاله، فاستقرّت في شخصه عقدة التفوّق والاصطفاء.

وتظهر هذه الصفة لدى الإنسان عندما يتلمّس في ذاته بعض القدرات العقليّة والفكريّة والجسديّة أو حتّى المادّيّة والاجتماعيّة التي تميّزه عن غيره، فيذهب اعتقاده المشوّه إلى اعتبار هذه القدرات ذاتيّة في شخصيّته وليست مستمدّة من الله، فتنشأ عنها مشاعر التفوّق وعقدة الاصطفاء، ودلالة الفهم المشوّه إمكانيّة زوال هذه القدرات في أيّ لحظة من لحظات حياته، يقول المولى جلّ جلاله في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]، فيفقد الإنسان كلّ ما اكتسبه من معارف وعلوم ومهارات وخبرات في لحظة من لحظات حياته، ويمتدّ الأمر إلى كلّ أشكال التملّك، الفكريّة منها والعقليّة والمعرفيّة والمراكز الاجتماعيّة ومواقع النفوذ والسلطة والمال وغيرها، فهي معرّضة للزوال بالنسبة إلى كلّ من يملكها من البشر؛ لأنّها مكتسبة من الله جلّ جلاله، وليست ذاتيّة بالنسبة إليهم، وهو الأمر الذي يتجلّى واضحًا في سورة الكهف، وخاصّة في الآيات (32 - 42)، والتي تشرح قصّة من سيطر عليه الإحساس بأنّ ملكيّته لجنّته إنّما هي ملكيّة ذاتيّة، وأنّها لن تبيد أبدًا، وكان في هذا الشعور بحدّ ذاته شرك بربّ العالمين. وتصوّر الآيات القرآنيّة المشار إليها في سورة الكهف:

(1) سورة النحل، الآية 70.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعا﴾[1] كيف أنّ مظاهر التملّك للأشياء والثروات إنّما هو تملّك بالوكالة وليس بالأصالة، وأنّ الاعتقاد بأنّها ذاتيّة المصدر إنّما هو شرك بالله، لكونها قابلة للزوال في أيّ وقت من الأوقات، وينطبق الأمر حتّى على أشكال التملّك العقليّة والاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها.

ب. رمزيّة إبليس ومصادر القوّة المؤثّرة في حياة الإنسان:

يقول المولى جلّ جلاله في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

وجاء هذا الخطاب بصيغةٍ مختلفة في سورة الأعراف (الآيات 19-23)، وفي سورة طه (الآيات 117-121).

ولكن الشيطان الذي أغرى آدم وزوجته ودفعهما ليأكلا من شجرة الخلد كما صوّرها لهما، هو نفسه الذي يغري بني آدم (الإنسان) ويدفع به إلى مخالفة الأمر الإلهيّ، ففي سورة الأعراف التي سبقت الإشارة إليها يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، ويدلّ ذلك على أنّ الشيطان في حقيقته إنّما هو رمز للقوى التي تدفع بالإنسان إلى ارتكاب المعاصي، ومخالفة الأمر الإلهيّ، الأمر الإلهيّ القائم على المساواة بين البشر لمساواتهم في عبوديّتهم لله، وفي مساواتهم لبعضهم بما خلقهم الله عليه.

(1) سورة الكهف، ا لآية 32.
(2) سورة الأعراف، الآية 27.

في سورة يوسف، وفي سياق حديث نبيّ الله يعقوب ليوسف (عليهما السلام) بعد روايته للحلم الذي رآه، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[3]، وفي ذلك دلالة على ارتباط صفة الكيد بالشيطان الذي يدفع الناس إلى ارتكاب المعاصي من خلال ما يحملونه من صفاته، والشيطان في هذه الآية الكريمة، إنّما يكمن في صفات الكيد التي يحملها إخوة يوسف نحوه، وليس كائنًا مستقلًّا عمّا يحملونه، ويحمله الإنسان من صفات الحقد والكيد والكره، وغير ذلك من الصفات التي تولّد العداوة والتباعد بين أفراد الجنس البشريّ.

ج. تجلّيات الإغواء ومجالات نفوذ إبليس:

إنّ آدم عليه السلام، وفي ظلّ استقلاليّته عن إبليس هو آدم العقل الذي يدرك موقعه الصحيح في هذا العالم، قياسًا على غيره من الكائنات المخلوقة مثله، ويشعر بمساواته في عبوديّته لله مع غيره من بني جنسه، ومتى سيطرت عليه خصائص إبليس بما تحمله من أنانيّة وعقدة التفوّق والاصطفاء والبحث عن المصالح الآنيّة، فإنّه يتحوّل إلى واحدٍ من بني آدم الذين حذّرهم الله عزّ وجلّ من عبادتهم للشيطان، والانقياد لهم بتمثّلهم لصفاته في شخصيّاتهم.

في سورة الأعراف وصف للمداخل التي يستطيع إبليس من خلالها التأثير في حياة الإنسان، يقول الله عزّ وجلّ مخاطبًا إبليس الذي رفض الخضوع للأمر الإلهيّ، ورفض السجود لآدم: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

(3) سورة يوسف، الآية 5.

صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

وفي هذه الآيات الكريمة ما يفيد بتعدّد المصادر التي يستطيع إبليس من خلالها التأثير في حياة الناس وتوجيه مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم، حتى يصبحوا من أتباعه، ويتمثّلوا صفاته في أنفسهم، فتصبح الأنانيّة (أنا خيرٌ منه) محور اهتمامهم، والاصطفاء (خلقتني من نار) ركيزة اعتقادهم، مع ما يستتبع هاتين الصفتين من شروط متمّمة، كالاستئثار وحبّ السيطرة، والسعي لجلب المنفعة دون استحقاقٍ شرعيّ، وغيرها من صفات العدوانيّة والنرجسيّة التي تفسّر مظاهر التناقض والصراعات القائمة بين بني البشر.

ومع سيطرة خصائص إبليس المتمثّلة بمشاعر الاصطفاء والأنانيّة والاستئثار على الإنسان تصبح كلّ موضوعات تواصله مع الآخرين موضع صراع وتنافس معهم؛ لذلك يأتيهم إبليس من بين أيديهم، ومن خلفهم وعن أيمانهم، وعن شمائلهم؛ لأنّ الاستحواذ بما يستدعيه من عدوان يصبح حقًّا مشروعًا في عقيدة الاصطفاء، ولا تحول دونه أيّ أخلاق اجتماعيّة أو إنسانيّة، أو أيّ مفاهيمَ ترتبط بالعدالة وحقوق الإنسان وغيرها من الصفات التي يقرّها الإنسان نفسه عندما يكون مستقلًّا عن سيطرة إبليس، وعندما يصبح آدم العقل الذي جعله الله خليفته في أرضه.

في سورة البقرة تحذير واضح من الانقياد وراء الشيطان من خلال الالتزام بالحقوق المشروعة دون تجاوزها، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنّ السعي للحصول على متطلّبات الحياة من مأكل ومشرب بطرقٍ غير شرعيّة إنّما هو من عمل الشيطان، فحتّى

الطعام والشراب بطرقٍ غير شرعيّة هو شكل من أشكال متابعة الشيطان الذي يعدّ العدوّ الأوّل للإنسان، وهذه المتابعة من حيث النتيجة تعدّ خضوعًا للقوى الشهوانيّة عند الإنسان والتي تحول دون اعترافه بالآخرين، وتدفعه إلى تجاوز حقوقهم.

وفي سورة البقرة أيضًا، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]، وفي ذلك دلالة على الصراع والحروب، إنّما هي من خطوات الشيطان، ولهذا يأمر الله عزّ وجلّ بضرورة تجنّبها، ويدعو إلى ما توجبه حالات السلم والتوافق بين أبناء الجنس البشريّ أنفسهم.

رابعًا: الهداية الإلهيّة أولويّة البعد الأخلاقيّ والوجدانيّ في حياة الإنسان:

تكمن الجذور الأساس لمعالجة مشكلات الإنسان في القرآن الكريم في المسألة الأخلاقيّة؛ ذلك أنّ مشكلات الإنسان جاءت نتيجة الارتباط بين خصائصه التي تميّزه عن الكائنات الحيوانيّة الأخرى، كالعدوانيّة وحبّ التملّك والاستئثار، مضافًا إلى ميزة التعقّل والتفكير، من جهة، وأنماط السلوك التي يمارسها في حياته من جهة أخرى، والتي تتحدّد من خلالها مسارات الصراع والتناقض بين أفراد الجنس البشريّ أنفسهم، ولمّا كان البعد الوجدانيّ والأخلاقيّ هو سمةٌ أيضًا من سمات الإنسان، فعليه تقوم الحلول التي يمكن من خلالها معالجة مشكلات الإنسان التي تبدو أنّها مستعصية على الحلّ بدون الأخلاق.

وتشكّل تزكية النفس البشريّة مركز الثقل في البعد الأخلاقيّ، وفي المعالجة القرآنيّة لمشكلات الإنسان، وهي ليست خارجة عن طبيعته، إنّما هي منبثقة من هذه الطبيعة نفسها، ولا يجوز النظر إليها على أنّها مسألة فوقيّة، أي يمكن أن تأتي من قوى غيبيّة متعالية على الإنسان. إنّما ترتبط

(1) سورة البقرة، الآية 208.

ارتباطًا وثيقًا بطبيعة الإنسان نفسه وبكيفيّة تشكّله النفسيّ والاجتماعيّ والثقافيّ في سياق تفاعل خصائصه مع الشروط الموضوعيّة المحيطة به.

ولمّا كانت النتائج المترتّبة على عمليّات التفاعل بين الإنسان والشروط المحيطة به مرتبطة بخصوصيّاته نفسه، فإنّ في هذه الخصوصيّات تكمن الحلول، وليس في الشروط الخارجة عنه، ما يجعل الإنسان مسؤولًا عن النتائج المترتّبة على سلوكه، بما تحمله من تداعيات سلبيّة يمكن أن تلحق به الضرر، أو بغيره من الناس.

يقول الله عزّ وجلّ في سورة البقرة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وفي الهداية الإلهيّة تكمن الحلول لمشكلات الإنسان المترتّبة على خصوصيّاته وسماته الأساس في العدوانيّة وحبّ الاستحواذ، والسيطرة، وعقدة الاصطفاء، وغيرها، والتي جعلها القرآن رمزًا لشخصيّة إبليس الذي يستقرّ في شخصيّة كلّ فرد، غير أنّ هذه الهداية لا تأتي على نحوٍ غيبيّ، إنّما تحتاج إلى إرادةٍ إنسانيّةٍ حقيقيّةٍ في قبولها والعمل بها، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، والتبعيّة تستوجب الإرادة والممارسة معًا، وليست مجرّد معرفة نظريّة وحسب، ويظهر مفهوم الهداية الإلهيّة أيضًا في سورة طه ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[2]، وفي السورة نفسها يقول المولى جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[3]، وما الإعراض عن ذكر الله جلّ جلاله إلّا شكل من أشكال الابتعاد عن الهداية التي أشارت إليها الآيات الكريمة في المواقع الأخرى.

(1) سورة البقرة، الآية 38.
(2) سورة طه، الآية 123.
(3) سورة طه، الآية 124.

وتتجسّد الهداية الإلهيّة التي وعد الله الإنسان بها، بالرسل السماويّة التي أرسلها لعباده من خلال رسله عليهم السلام، جاء في سورة فاطر ﴿إنا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]، وفي سورة النحل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَة﴾[2]، وفي سورة الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾[3].

ومع الأخذ بالهداية الإلهيّة، واتّباع الرسل يتجسّد الإيمان، ويمكن للإنسان عندئذ أن يتجنّب سيطرة إبليس، أي سيطرة القوى الكامنة في شخصيّته، يقول المولى جلّ جلاله في سورة الحجر على لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، ويأتي الجواب الإلهيّ ليؤكّد غياب سيطرة إبليس على المؤمنين، فيقول الله عزّ وجلّ في السورة نفسها، وفي السياق ذاته ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وفي سورة الإسراء تأكيدٌ على ضعف إبليس أمام المؤمنين، يقول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾[4]، وفي سورة (ص) أيضًا يقول الله جلّ جلاله على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ويلاحظ أنّ الحلّ القرآنيّ لمشكلات الإنسان إنّما تأتي من ذاته مع تحرّره من القوى النفسيّة والاجتماعيّة التي تجعل منه يشعر بالتعالي وحبّ السيطرة والاستحواذ.

(1) سورة فاطر، الآية 24.
(2) سورة النحل، الآية 36.
(3) سورة الإسراء، الآ ية 15.
(4) سورة الإسراء، الآية 65.

خاتمة:

تأتي أهمّيّة التأصيل المعرفيّ لعلم الإنسان من منظور القرآن الكريم من اعتبارين أساسين، يرتبط الأوّل بالمساهمة في تطوّر علم الإنسان نفسه، وفي معالجة المشكلات المعرفيّة المترتّبة على مواطن الضعف فيه. ويكمن الاعتبار الثاني في فهم البنية التقليديّة للمجتمع الإسلاميّ نفسه، والتي تعيد إنتاج مشكلاته المعرفيّة المستقرّة فيه منذ زمنٍ طويل، والتي جعلت الفكر الإسلاميّ ينشط في دائرةٍ مغلقةٍ قوامها إعادة مشكلاته باستمرار.

إنّ من شأن علم الإنسان من منظور القرآن الكريم أن يأخذ بتحرير الفكر الإسلاميّ من القوالب المستقرّة في بنيته التقليديّة، والتي تعيد إنتاج مشكلاته باستمرار وتحول دون قيام المجتمع الإسلاميّ الذي أراده الله جلّ جلاله أن يكون رحمةً للعالمين؛ ذلك أنّ جعل الإسلام رهن بتجارب تاريخيّة محدّدة، وبرموزٍ اجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ ودينيّةٍ دون غيرها يؤدّي إلى قولبة العقيدة في تجارب موضعيّة نشأت في شروطٍ متبدّلة وليست مستقرّة، ويعطي لهذه التجارب قدسيّةً تتجاوز حدودها الزمانيّة والمكانيّة، ويجعل منها معيارًا للحكم على سلامة تجارب أخرى مختلفة عنها في الزمان والمكان، ما يدعو إلى تعميق التناقضات في بنية المجتمع الإسلاميّ والتباعد بين مكوّناته، ويجعل من المجتمع نقمة على أبنائه ومكوّناته المختلفة.

ومن شأن علم الإنسان من منظور القرآن الكريم، أن يسهم في التعرّف على مشكلة الإنسان التي تجلّت في التجربة الإسلاميّة عبر تاريخها، واتّضحت معالمها في مظاهر التناقض الذي يعيشه المسلمون منذ فترات طويلة، ويعيدون إنتاجه اليوم باستمرار؛ ذلك أنّ التركيز على قدسيّة التجارب دون المبادئ يجعل من العقيدة مشتّتة بين قدسيّة هذه التجربة أو تلك، فضلًا عن مظاهر التناقض بينها، في الوقت الذي يؤدّي فيها التركيز

على المبادئ إلى التقارب مع الآخر، بصرف النظر عن خصوصيّة التجارب التي تعيشها هذه الجماعة أو تلك، فمبادئ الحقّ والعدل والمساواة تعلو في قيمتها على قيمة التجارب الموضعيّة التي تعيشها الجماعات الإنسانيّة مع اختلاف زمانها ومكانها.

وتفيد محاولة التأصيل المعرفيّ لعلم الإنسان من منظور القرآن الكريم بثلاثة نتائج رئيسة تتمثّل في أنّ للإنسان خصوصيّةً تكوينيّةً تميّزه عن الكائنات الأخرى، وفي هذه الخصوصيّات تكمن مشكلة الإنسان، وتكمن عوامل قوّته وعوامل ضعفه في الوقت نفسه، وأنّ الحلّ الحقيقيّ لهذه المشكلة ولمشكلاته العديدة المترتّبة عليها إنّما هو في الهداية الإلهيّة التي وعد الله جلّ جلاله بها عباده.

إنّ الإنسان، وكما تنطوي على ذلك النتيجة الأولى، يتميّز باجتماع جملةٍ من الخصائص النوعيّة فيه، وهي الخصائص المتمثّلة بالقدرات العقليّة والتفكير والعدوانيّة والشعور بالمتعة، مضافًا إلى خلود النفس، وهي نتاج لتفاعل النفخة الإلهيّة في شخصيّته مع الطبيعة المادّيّة الطينيّة التي تأسّس عليها، وقد مكّنه هذا التفاعل من أن يصبح قادرًا على التعلّم واكتساب المعارف والمهارات والخبرات، مضافًا إلى قدرته على ممارسة الفعل الإنسانيّ بما ينطوي عليه من اختلاف أهدافه وتناقضها من جهة، وتعدّد أشكاله وتنوّعها من جهة ثانية.

وتفيد النتيجة الثانية للبحث، بأنّ التفاعل بين النفخة الإلهيّة والطبيعة الطينيّة في شخصيّة الإنسان أتاح له مساحةً من الحرّيّة والمسؤوليّة التي تتّسع تبعًا لما استقرّت عليه شخصيّته من هذه الصفات، فالقدرات العقليّة والفكريّة في مستوياتها العليا توفّر له إمكانيّة التعرّف على ذاته وموقعه من الله في هذا العالم، وتعزّز في شخصيّته مظاهر التواضع والخوف من الله؛ لأنّ كلّ ما يتمتّع به من قدرات ومهارات إنّما هي مكتسبة من

الله جلّ جلاله، وليست ذاتيّة في شخصيّته، بينما تدفعه الطبيعة المادّيّة الطينيّة إلى محدوديّة التفكير وغياب المعرفة بموقعه الحقيقيّ في هذا العالم، والاعتقاد بأنّ ما يتمتّع به من قدرات تميّزه عن غيره إنّما هي مرتبطة بذاته ومستقرّة في شخصيّته، ويترتّب على ذلك انشغاله المستمرّ بما يحقّق منافعه وإرضاء دوافعه وميوله في السيطرة وحبّ التملّك والاستحواذ دون النظر إلى شرعيّة ما يمارسه من أفعال.

ولهذا فإنّ علم الإنسان الإسلاميّ، وبهذه النتيجة الثالثة، يجد أنّ حلّ المشكلة الأساس لدى الإنسان، المتمثّلة في مظاهر الصراع والتناقض التي تبدو واضحة في كلّ الأشكال الاجتماعيّة لوجوده (البدائيّة منها والمتحضّرة)، إنّما يكمن في ذات الإنسان نفسه، مع اتّباعه للهداية الإلهيّة التي وعد الله بها بني آدم، والتي يمكن أن يستفيد منها الإنسان على قدر اتّساع معارفه وحرّيّة تفكيره، ما يساعده في معرفة نفسه ومعرفة العالم الذي يعيش فيه من خلال رؤية شموليّة واسعة تعزّز في وعيه الشعور بالتواضع والخوف من الله جلّ جلاله، مع ما يترتّب عليها من تمثّل وجدانيّ لمبادئ الحقّ والخير والعدالة والمساواة بين البشر.